الباب الأول

حـروف العربيـة

- الفصل الأول: حروف العربية من حيث العدد.
- الفصل الثاني: حروف العربية من حيث المخارج.
- الفصل الثالث: حروف العربية من حيث الصفات.
- الفصل الرابع: التطور التاريخي لبعض أصوات العربية.

الفصل الأول

حروف العربية من حيث العدد

١. الحروف العربية الأصول.

٢. الحروف العربية الفروع المستحسنة.

٣. الحروف العربية غير المستحسنة.

حروف العربية من حيث العدد

عدَّ سيبويه أصل حروف العربية تسعة وعشرين حرفاً هي: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو.[1]

غير أنها من الممكن أن تصبح - كما يقول هذا العالم- "خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي:" النون الخفيفة، والهمزة التي بَيْنَ بَيْن، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم يُعْنَى بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصلاة، والزكاة، والحياة."[2]

وقد يرتفع هذا العدد فيصبح "اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنةٍ ولا كثيرةٍ في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؛ وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي

---

(١) سيبويه: الكتاب. ٤/ ٤٣١

(٢) السابق ٤/ ٤٣٢

كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء."[1]

ثم يعلق سيبويه على هذا التصنيف، الذي قدمه للأصوات العربية بقوله: " هذه الحروف التي تمَّمْتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون، لا تُتبيَّن إلا بالمشافهة"[2]

ويتضح لنا، من هذا التصنيف الصوتي، الذي قدمه سيبويه، أن تصور هذا العالم للأصوات العربية يتوزع في ثلاثة أقسام هي:

١. حروف عربية أصلية، وعددها -كما مرَّ معنا- تسعة وعشرون حرفاً.
٢. حروف عربية فرعية مستحسنة، وعددها -كما سبق أن ذكرنا- ستة أحرف.
٣. حروف عربية فرعية غير مستحسنة، وعددها -كما يمكن فهمه- سبعة أحرف.

وسنحاول - فيما يأتي- إلقاء بعض الأضواء التوضيحية على تصورات سيبويه وتصنيفاته الصوتية، التي أرسى قواعدها وأسسها منذ

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٢

بدء فجر الحركة العلمية والفكرية عند العرب والمسلمين، وترسَّم خطاه في ذلك جُلُّ من جاء بعده من العلماء اللغويين.

أولاً: الحروف العربية الأصول :

يقصد سيبويه بالحروف التسعة والعشرين، التي عدّها أصل حروف العربية -فيما يبدو لنا- فونيمات اللغة العربية من صوامت Consonants[1]، وحركات Vowels[2]، وأنصاف صوامت، أو

---

(١) يقصد بالصامت Consonant، من وجهة نظر علم الأصوات، "صوت كلامي ينتج بتأثير إعاقة، أو انسداد لمرور الهواء عند موضع ما من الممر الصوتي الواقع فوق المزمار Glottis، وتشمل الصوامت في العربية جميع الأصوات باستثناء الحركات، وأنصاف الحركات." يُنظر:

R.R.K. Hartmann and F.C. Stork: Dictionary of Language and Linguistics. P. 49

(٢) تعرّف الحركات Vowel، من وجهة نظر علم الأصوات أيضاً، بأنها الصوت الذي يتم انتاجه دون أن يحدث انسداد أو تضييق في مجرى الهواء في الفم، ولذلك فإنه لا يصاحب انتاج الحركة أي احتكاك مسموع.

ويعرف Daniel Jones الحركة بأنها صوت مجهور يخرج الهواء، في أثناء تشكله، في تيار متتابع مستمر، من خلال الحلق والفم، دون أن يتعرض لتدخل يمنع خروجه، أو يسبب له احتكاكاً مسموعاً.

يُنظر كتابه : An outline of English Phonetics. PP: 22-23.

أنصاف حركات كما تسمى Semi Consonants/ Vowels[1].

إن اشتمال الجدول الصوتي، عند سيبويه، على أحرف الألف، والواو، والياء، يوحي بأن هذا الجدول يتضمن - إضافة إلى الصوامت- نوعين آخرين من الأصوات هما: الحركات، وأنصاف الحركات. فالواو والياء، اللتان وردتا في هذا الجدول، لهما -في التفكير الصوتي العربي- جانبان:

أولهما: عدّهما صامتين، أو ما يمكن تسميته بأَنصاف حركات، وذلك مثل الواو والياء، في كلمتي: "وعد"، و"يعد".

وثانيهما: عدّهما حركتين طويلتين، وذلك مثل الواو والياء، في كلمتي: "ذهبوا"، و"لم تذهبي".

ولكن كل صوت من هذين الصوتين قد توحَّد في جانبيه المذكورين - في تاريخ الكتابة العربية- برسم واحد، الأمر الذي أدى إلى

---

(١) يقصد بأنصاف الصوامت، أو أنصاف الحركات، تلك الأصوات الكلامية التي لها بعض ملامح الحركات، وبعض ملامح الصوامت. فهي أصوات تتقارب، في أثناء انتاجها، أعضاء النطق المنتجة لها تقارباً كبيراً. ويكون الاحتكاك الناتج ضئيلاً للغاية ولكنها -أي هذه الأصوات- لا تقوم بدور نواة مقطع. يُنظر:
Hartmann and Stork, Dictionary of Language and Linguistics. PP 205-206.

حدوث لبس في دلالتهما على هذين الجانبين. وبوسعنا أن نجد الدليل على ذلك في مواقع متفرقة من "الكتاب". إلا أننا نودُّ التمثيل له من موضع قريب مما نحن بصدد الحديث عنه. يقول سيبويه: "وإذا كانت الواو قبلها ضمة، والياء قبلها كسرة، فإن واحدة منهما لا تدغم إذا كان مثلها بعدها، وذلك قولك: ظلموا واقدا، واظلمي ياسراً، ويغزو واقداً، وهذا قاضي ياسر"(١).

فهو - في هذا النص- يوحِّد بين حركة الضمة الطويلة، التي سماها واواً، والواو، التي هي صامت أو نصف حركة، والتي سماها واواً أيضاً. كما أنه يوحِّد -في هذا النص أيضاً- بين حركة الكسرة الطويلة التي سماها ياء، والياء التي هي صامت أو نصف حركة، والتي سماها ياء أيضاً.

إن الرسم الموحد للواو والياء في حالتي كونهما حركتين طويلتين أو نصفي حركة، كان وراء اللبس في تصور هذين الصوتين، واعتبار كل منهما -من ثمَّ- صوتاً واحد.

وإذا ضممنا إلى صوتي الواو والياء -باعتبارهما حركتين طويلتين- الألف، أصبح لدينا – في مستوى التصنيف الصوتي- ثلاث حركات طويلة هي : الألف ، والواو، والياء ، وهي التي أطلق عليها

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٢

علماؤنا القدامى مصطلح حروف المد أو اللين "فما يسمى بألف المد هي في الحقيقة فتحة طويلة، وما يسمى بياء المد ليست إلا كسرة طويلة، وكذلك واو المدِّ تعد من الناحية الصوتية ضمة طويلة."(١)

ولهذه الحركات الطويلة، أي الألف، والياء، والواو، مقابلات قصيرة هي: الفتحة، والكسرة، والضمة على التوالي. ولا تختلف هذه الحركات القصيرة عن تلك الحركات الطويلة إلا في الطول Length أو الكمية Duration. "فكيفية النطق بالفتحة، وموضع اللسان معهما، يماثل كل المماثلة كيفية النطق بما يسمى ألف المد، مع ملاحظة فرق الكمية بينهما."(٢)

ولكن الذي يلفت الانتباه في قائمة هذه الحروف التسعة والعشرين، التي قدمها سيبويه، هو اشتمالها على الألف بوصفها حرفاً – أو لنقل فونيماً- مستقلاً إلى جانب الهمزة، ونسبة هذين الحرفين –مع أصوات أخرى- إلى المخرج الحلقي. والحقيقة، التي نود التأكيد عليها مرة أخرى، هي أن الألف لا تعد –بحال من الأحوال- حرفاً من الحروف الصامتة، كما أنها لا تنتمي إلى المخرج الحلقي. فهي – في التصنيف الصوتي الحديث، الذي يعدها فتحة طويلة- تنتمي، مع

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٣٨.

(٢) السابق. ص: ٣٨.

الكسرة والضمة، إلى مجموعة الأصوات المسماة حركات Vowels ويتم النطق بها عندما يكون اللسان مستوياً في قاع الفم، وبعيداً عن الغار، أو الحنك الصلب Hart Palate كما يسمى.

ويبدو أن اللغويين، الذين جاءوا بعد سيبويه، قد أدركوا وجود نوع من الخلط بين حرفي الهمزة والألف؛ فابن جني -على سبيل المثال- يوضح ذلك بقوله: "اعلم أن الألف التي في أول حروف المعجم هي صورة الهمزة في الحقيقة ، وإنما كتبت الهمزة واواً مرة، وياء أخرى، على مذهب أهل الحجاز في التخفيف، ولو أريد تحقيقها البتة، لوجب أن تكتب ألفاً على كل حال"(١). فكأن الألف -في رأي ابن جني- عبارة عن رمز كتابي، أو وحدة خطية جرافيم Grapheme (٢) أما الهمزة فإنها تمثل الجانب النطقي لها. وقد حاول ابن جني توضيح ذلك بقوله: "إن كل حرف سميته ففي أول حروف تسميته لفظه بعينه، ألا ترى أنك إذا قلت " جيم "، فأول حروف الحرف "جيم"، وإذا قلت " دال "، فأول حروف الحرف "دال"، وإذا قلت "حاء"، فأول ما لفظت به حاء،

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٤١ .

(٢) يُراجع، في هذا الشأن، كتاب الدكتورة فاطمة محجوب: دراسات في علم اللغة. ص:١٠٧، وما بعدها.

وكذلك إذا قلت "ألف"، فأول الحروف التي نطقت بها همزة. فهذه دلالة أخرى غريبة على كون صورة الهمزة مع التحقيق ألفاً"[١].

ولعل ابن جني كان يدرك أن هناك فارقاً بين الألف -أي الفتحة الطويلة، والهمزة. فهو يقول: "فأما الألف المدة التي في نحو سار وقام وكتاب وحمار، فصورتها أيضاً صورة الهمزة المحققة التي في أحمد وإبراهيم وأُتْرجّة، إلا أن هذه الألف لا تكون إلا ساكنة، فصورتها وصورة الهمزة المتحركة واحدة وإن اختلف مخرجاهما"[٢] .

ولكن ابن جني لم يطبق آراءه تلك عندما أقدم على وضع الألف -على غرار ما فعل شيخه وأستاذه سيبويه- إلى جانب الهمزة، وذلك في أثناء تصنيفه للأصوات، وتحديده لمخارجها، كما أنه لم يتحدث عن مخرج الألف التي نصَّ -كما مرَّ معنا قبل قليل- على أن لها مخرجها المختلف عن مخرج الهمزة.

وقد حاول بعض اللغويين توجيه رأي سيبويه على نحو آخر اعتبروا فيه الألف، التي ذكرها شيخهم بعد الهمزة، مرادفة للهمزة، أو مفسرة للمقصود بها، وخاصة أن المعنى الاصطلاحي للهمزة لم يكن في ذلك الوقت قد استقر في الميدان اللغوي بعامة، والصوتي بخاصة. ويقدم

(١) ابن جني، سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٢.

(٢) السابق. ١/ ٤٢- ٤٣

اللغويون دليلاً أنَّعلى ذلك تلك الرواية التي تقول إنَّ أحد اللغويين سأل رجلاً من قريش قائلاً:" أَتَهْمِزُ الفأرة"؟ فلم يفهم القرشي السؤال وأجاب ساخراً " إنما يهمزها القط" وكان اللغوي يهدف من سؤاله هذا ما إذا كان القرشيون يلتزمون تحقيق الهمزة في كلامهم.

فابن يعيش –على سبيل المثال– ينص على ذلك بقوله: "اعلم أن أصل حروف المعجم عند الجماعة تسعة وعشرون حرفاً على ما هو المشهور من عددها، أولها الهمزة ويقال لها الألف، وإنما سموها ألفاً لأنها تصور بصورة الألف ... والصواب ما ذكره سيبويه وأصحابه من أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفاً أولها الهمزة، وهي الألف التي في أول حروف المعجم، وهذه الألف هي صورتها على الحقيقة ..."(١)

ولكن التوجيهات المختلفة التي تقدم لرأي سيبويه بشأن الألف والهمزة، لا تنفي اعتباره للألف حرفاً مستقلاً عن الهمزة. ولعلنا نلتمس الدليل على ذلك في أن سيبويه –ومعه غيره من العلماء الذين جاءوا بعده– قد أفردوا الهمزة عن الألف في أثناء معالجاتهم وتصنيفاتهم للأصوات العربية في مختلف المستويات الوصفية والملمحية.

ويبدو لنا أن مشكلة رسم الهمزة والألف، واختلاطهما معاً –في بعض مواقع الرسم الكتابي من جهة، ومشكلة نطق هذين الحرفين

---

(١) ابن يعيش، شرح المفصل. ١٠/ ١٢٦

واختلاطهما معا- في بعض مواقع النطق الكلامي من جهة أخرى، قد أوحت -لهذا العالم ومن ترسّم خطاه من العلماء- بهذا الخلط بين هذين الحرفين، وعدِّهما، مع أحرف أخرى، من أحرف الحلق.

وتجدر الإشارة إلى أن القائمة التي قدمها سيبويه للحروف العربية، والتي بلغ عددها -عنده- تسعة وعشرين حرفاً ، لا تستغرق "فونيمات[١] اللغة العربية الفصيحة جميعاً والتي يبلغ عددها أربعة وثلاثين فونيماً. فهي لا تذكر الحركات القصيرة الثلاث، كما أنها تدمج نصفي الحركة، الواو والياء، مع حركتي الضمة والكسرة الطويلتين"[٢].

---

(١) يقصد بالفونيم وحدة الكلام الصغرى التي من شأنها أن تميز منطوقاً من آخر في كل التنوعات، أو التشكلات التي تتجلى بوساطتها في كلام شخص ما، أو في لهجة واحدة. أو هو "صوت كلامي، أو مجموعة من الأصوات الكلامية المتماثلة المترابطة التي تقوم بوظيفة متشابهة في لغة ما. وتُمثل في العادة بحرف واحد بعينه في الكتابة". يُنظر:

Mario pei, Glossary of Linguistic Terminology P:200

يُنظر كذلك:

Mario Pei, and Frank Gynor, Dictionary of Linguistics. P: 167.

(٢) أشار سيبويه -في مواقع متفرقة من كتابه- إلى وجود ارتباط بين نوعي الحركات الطويلة والقصيرة. فهو يقول -على سبيل المثال- "وإن كان ما قبلها (يقصد الهمزة) مكسوراً أبدلت مكانها ياء، كما أبدلت مكانها واواً إذا كان ما قبلها مضموماً، وألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً... فأبدلوا هذه الحروف التي منها الحركات=

ثانياً- الحروف العربية الفروع المستحسنة:

عرض سيبويه- بعد الحروف التسعة والعشرين السابقة التي سماها أصل حروف العربية- ستة أحرف أخرى اعتبرها متفرعة من بعض تلك الحروف الأصول. وهذه الأحرف هي:

١- النون الخفيفة:

يقصد سيبويه بالنون الخفيفة، تلك النون الساكنة التي تنطق من الأنف على شكل غُنّة، وتظهر في قراءة القرآن الكريم في حالة ما يسمَّى بالإخفاء، الذي هو حكم النون الساكنة إذا وقعت قبل خمسة عشر صوتاً هي: (ت، ث، ج، د، ذ، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ف، ق، ك)، وتنطق النون، في هذه الحالة، من الأنف مع وضع اللسان في مخرج الصوت التالي لها.

ولقد انفرد سيبويه -فيما يظهر- بوصف هذه النون بأنها خفيفة، وكأن السكون الطارئ عليها في بعض السياقات النطقية أدى إلى تخفيفها

=(لأنها اخوات، وهي أمهات البدل والزوائد) ، وليس حرف يخلو منها أو من، بعضها وبعضُها ، حركاتُها" الكتاب٣/ ٥٤٤ - ويقول في موضع آخر: " وإنما الضمتان من الواوين، فكما تكره الواوان كذلك تكره الضمتان لأن الضمة من الواو، ... وكذلك الكسرتان تكرهان عند هؤلاء كما تكره الياءان في مواضع، وإنما الكسرة من الياء..." يُنظر: الكتاب ٤/ ١١٤-١١٥.

مما أدى بالتالي إلى جعلها أنفية خالصة، والدليل على ذلك "أنك لو أمسكت بأنفك، ثم نطقت بها لوجدتها مختلَّة"[1] .

أما من جاء بعد سيبويه من اللغويين -وهم في الحقيقة والواقع تلاميذ في مدرسته اللغوية- فكثيراً ما كانوا يصفون هذه النون بأنها "خفية"؛ فابن جني، الذي ترسَّم في معالجاته الصوتية خطى سيبويه، ينص، في معرض حديثه عن هذه النون، على أن "من الخياشيم مخرج النون الخفية، ويقال الخفيفة، أي الساكنة"[2] . فكأنه يرجح تسميتها بالخفية على تسمية شيخه لها بالخفيفة، وإلى ذلك ذهب كثير من اللغويين، كالزمخشري وشارح مفصله ابن يعيش، وابن عصفور، والرضيّ في شرحه لشافية ابن الحاجب وغيرهم.

ولا شك في أن وصف هؤلاء اللغويين لهذه النون بالخفاء، أدق من وصف سيبويه لها بالخفة. إذ من "المعروف أن النون الخفية غير النون الخفيفة، فالخفيَّة هي نون الإخفاء قبل حروف الفم، وهي التاء والثاء...

---

(١) ابن جني، سر صناعة الإعراب ١/ ٤٨. وكذلك:

ابن يعيش، شرح المفصل. ١٠/ ١٢٦.

(٢) ابن جني، سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٨.

وأما الخفيفة فهي إحدى نوني التوكيد، ولها أحكام في الوقف تفردها بطابع خاص حيث تصير في الوقف ألفاً"(١).

وعلى أي حال، فإن هذه النون، التي تحدث عنها سيبويه، وعدَّها من الحروف المستحسنة، التي يُؤخذ بها، ما هي -في الواقع- سوى تنوع صوتي، أو لنقل صورة صوتية (ألوفونية) متفرعة سياقياً عن الوحدة الصوتية الأساسية (الفونيم)، التي أطلق عليها سيبويه مصطلح الحرف. فالنون "اصطلاح شامل يدخل تحته عدد من الأصوات كالذي في بداية "نحن"، والذي قبل الثاء في "إن ثاب"، وقبل الظاء في "إن ظهر"، وقبل الشين في "إن شاء"، وقبل القاف في "إن قال" مع اختلاف واضح بين هذه الأصوات في المخرج"(٢).

٢- الهمزة التي بَيْنَ بَيْن:

وضَّح ابن جني مقصود سيبويه بهذه الهمزة بقوله: "هي بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها إن كانت مفتوحة، فهي بين الهمزة والألف، وإن كانت مكسورة فهي بين الهمزة والياء، وإن كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو، إلا أنها ليس لها تمكن الهمزة المحققة وهي، مع ما

---

(١) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٣.

(٢) د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص: ١٢٥. وكذلك:

د. محمود السعران: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي. ص: ٢١٢-٢١٣

ذكرنا من أمرها، في ضعفها وقلة تمكنها، بزنة المحققة... فالمفتوحة نحو قولك في سأل: سَاَل، والمكسورة نحو قولك في سئم: سَيِم، والمضمومة نحو قولك في لؤم: لَوُم"[1].

والواقع أن هذه الهمزة، التي تحدث عنها سيبويه، هي الهمزة التي وصفها السيوطي بأنها مسهَّلة، أي ضعيفة ليس لها تمكن المحققة ولا خلوص الحرف الذي منه حركتها. وهي، مع ذلك، تبقى – كما قال السيوطي أيضاً- فرع الهمزة المحققة[2]. ويعود السبب في تسهيل هذه الهمزة وضعفها إلى عدم إقفال الوترين الصوتيين وانطباقهما في أثناء النطق بها، كما هو الحال مع الهمزة المحققة.

وتعد هذه الهمزة، التي وصفها القدماء بأنها فرع الهمزة المحققة، تنوعاً صوتياً للوحدة الصوتية (الهمزة)، التي أوردها سيبويه ضمن الحروف التسعة والعشرين التي أطلق عليها "أصل حروف العربية".

٣- الألف التي تمال إمالة شديدة : ويقصد بها الألف التي يُنْحى بها نحو الياء، أو تلك الألف التي نجدها -كما قال ابن جني- بين الألف والياء، نحو قولك في عالم وخاتم عالِم خاتِم[3].

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٨

(٢) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٢٩

(٣) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥٠. وكذلك: ابن يعيش: شرح المفصل. ١٢٧/١٠

وقد نصَّ سيبويه -في موضع آخر من كتابه- على أن "الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور، وذلك قولك عابِدٌ، وعالِمٌ، ومساجِدُ ومفاتيحُ، وعذافر، وهابيل، وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها، أرادوا أن يقربوها -أي الألف- منها-أي من الكسرة-"(١) .

وتقع الألف الممالة -في قراءة أبي عمرو بن العلاء- قبل الراء المكسورة في مثل: (النار، الأبرار، الابصار ، الأنصار)، كما ترتبط بالألف ذات الأصل اليائي في مثل ما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾(٢) بإمالة ألف (مجراها) لتصبح (مجريها) بالكسرة التي ترسم صوتياً (e) -أي كسرة ممالة- لا (i) وهي الكسرة الخالصة(٣).

ويبدو أن الذي أحدث الإمالة في الألف، هو -كما يفهم من كلام سيبويه- إحداث نوع من المماثلة بين الأصوات المتجاورة ، فوقوعها قبل كسرة خالصة، أدى إلى تأثير الألف بهذه الكسرة تأثيراً رجعياً فحولت بدورها إلى حركة طويلة تقع نطقياً - كما لمح ابن جني- بين منطقتي نطق الألف والياء.

---

(١) الكتاب. ٤/ ١١٧.

(٢) هود:٤١

(٣) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢١١.

ومن المعلوم أن نطق هاتين الحركتين -أي الألف، أو ما يُسمى بالفتحة قصيرة وطويلة، والكسرة- يرتبط بالجزء الأمامي من اللسان ونسبة ارتفاعه أو انخفاضه في منطقة الغار، أو ما يُسمى بالحنك الصلب، وقد ذهب سيبويه إلى أن "الألف قد تشبه الياء، فأرادوا ان يقربوها منها"[1]. ولعل هذا الشبه، الذي نص عليه شيخنا، شبه فرضه السياق النطقي، الذي وقعت فيه الألف مجاورة لياء أو كسرة، مما أدَّى إلى تأثر الألف بالياء أو الكسرة، وتحويلها إلى حركة وسيطة يرتفع، في أثناء النطق بها، مقدم اللسان تجاه الغار، ولكن بنسبة أقل من ارتفاعه مع الكسرة الخالصة، وبنسبة أكبر من ارتفاعه مع الفتحة الخالصة.

وعلى هذا، فإن هذه الألف، التي نص عليها سيبويه، وعدَّها من الحروف المستحسنة، ما هي إلا تنوع صوتي (ألوفوني) للوحدة الصوتية (الفونيمية) المساة ألفاً، أو فتحة طويلة كما تسمى.

٤- الشين التي كالجيم:

ويقصد بهذا الصوت، الذي عده سيبويه حرفاً مستحسناً، صوت الشين المهموس، الذي يمكن أن يقع، في بعض السياقات النطقية، ساكناً، ومتلواً بصوت مجهور. ومن شأن هذا أن يؤدي إلى تأثر

---

(١) الكتاب. ٤/ ١١٧

صوت الشين بالصوت المجهور التالي له مباشرة، تأثراً رجعياً Regressive، فيطرأ عليه -بناء على ذلك- نوع من التجهير Voicednessفيجعله صوتاً قريباً -في نطقه- من الجيم الشامية المعطشة.

والهدف من ذلك هو إحداث نوع من المماثلة بين الأصوات المتجاورة، لأن "الفرار من المتنافيين مستحسن، والفرار من المثلين مستهجن"(١).

ويقدم سيبويه واللغويون، الذين جاءوا بعده وتأثروا به، لهذه الظاهرة مثالاً بالفعل "أشدق" الذي يصبح في نطقهم، أو في نطق بعضهم، كأنه "أجدق". ويقدم ابن يعيش تعليلاً صوتياً موفقاً لهذه الظاهرة بقوله: "لأن الدال حرف مجهور شديد، والجيم مجهور شديد، والشين مهموس رخو فهي ضد الدال بالهمس والرخاوة، فقربوها من لفظ الجيم لأن الجيم قريبة من مخرجها موافقة الدال في الشدة والجهر"(٢).

ويقدم الرضي تفسيراً قريباً من هذا عندما ذهب إلى أن سيبويه قد "استحسن الشين المشربة صوت الجيم، لأنه إنما يفعل ذلك بها إذا كانت الشين ساكنة قبل الدال، والدال مجهورة شديدة والشين مهموسة رخوة

---

(١) الرضي: شرح شافية ابن الحاجب. ٣/ ٢٥٦.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

تنافي جوهر الدال، ولا سيما إذا كانت ساكنة، لأن الحركة تخرج الحرف عن جوهره فتشرب الشين صوت الجيم، التي هي مجهورة شديدة كالدال لتناسب الصوت، فلا جرم استحسن"(١).

والواقع أن صوت الشين، الذي يشبه صوت الجيم، والذي صنّفه سيبويه –ومن جاء بعده من اللغويين– ضمن الحروف المستحسنة، هو صورة صوتية سياقية متفرعة عن الوحدة الصوتية الأصلية وهي فونيم (الشين) بسبب الموقع السياقي النطقي الذي وقعت فيه. وهذا يعني، كما يمكن أن يفهم من كلام شارح الشافية آنف الذكر، أن وقوع صوت الشين في كلمة " أَشدق " متسماً بملامح وصفات ضعف تتمثل بالهمس، والاحتكاك ، والوقوع ساكناً في نهاية مقطع، قبل صوت الدال المتسم بصفات قوة تتمثل بالجهر، والانفجار، والوقوع متحركاً في بداية مقطع، كان السبب في إحداث تأثير رجعي Regressive أدى إلى طروء الجهر ، أو ، بعبارة أدق ، التجهير على صوت الشين ، ومن المعلوم أن المقابل المجهور لصوت الشين هو صوت الجيم الشامية ، أو الجيم المعطشة كما تُسمَّى.

وفي رأينا أن الموقعية الخاصة، التي ذكرها أولئك اللغويون لهذا الصوت، ليست هي الوحيدة التي من شأنها إحداث هذه الظاهرة. فهذا

---

(١) الرضي: شرح شافية ابن الحاجب. ٣/ ٢٥٥-٢٥٦.

الصوت؛ أي الشين، يتعرض إلى التجهير -أيضاً- في نطقنا، أو في النطق المعاصر لمعظمنا على الأقل، إذا وقع ساكنا قبل صوتي الغين والجيم المجهورين أيضاً، وذلك في مثل نطقنا للكلمات التالية: أشغال ومشغول، وأشجار التي تصبح كأنها: أجْغال، ومجْغول، وأجَّار، على التوالي.

٥- الصاد التي تكون كالزاي:

يقصد بالصاد، التي تكون كالزاي، تلك الصاد التي قد تتعرض، في بعض السياقات النطقية، إلى التجهير، بسبب مجاورتها لأحد الأصوات المجهورة. ولقد نص ابن جني على أن هذه الصاد "المجهَّرة" "يقل -بسبب مجاورتها لصوت مجهور- همسها قليلاً، ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاي" [١]. ومن الأمثلة، التي قدمها سيبويه واللغويون على ذلك، كلمات مثل: مصْدر، وأصْدر، ويصْدر وتصْدر، وأصْدق، ويصْدق... وغيرها. ويلاحظ على هذه الكلمات، التي مثّلوا بها لهذه الظاهرة، أنها تشتمل على الصاد الساكنة المهموسة مجاورة الدال المتحركة المجهورة. ولقد جعل سيبويه سكون الصاد المتلوة بالدال شرطاً لتجهيرها[٢]. وقد نص ابن جني على ذلك صراحة عندما قال: "فإن

---

(١) ابن جني: سر صناعة الاعراب. ١/ ٥٠.

(٢) الكتاب. ٢/ ٤٧٧-٤٧٨.

تحركت الصاد لم يجز فيها البدل وذلك نحو: صَدَرَ، وصَدَفَ، لا تقول فيه: زَدَرَ، ولا زَدف، وذلك أن الحركة قوَّت الحرف وحصَّنته فأبعدته من الانقلاب، بل يجوز فيها إذا تحركت اشمامها رائحة الزاي، فأمَّا أن تُخلص وهي متحركة زاياً كما تخلص وهي ساكنة، فلا. وإنما تقلب الصاد زاياً أو تشم رائحتها إذا وقعت قبل الدال، فإن وقعت قبل غيرها لم يجز ذلك فيها"(١).

ولقد أورد بعض اللغويين أمثلة لهذه الظاهرة دون أن يتحقق فيها هذان الشرطان، وذلك مثل قولهم الصراط المستقيم بإشمام الصاد الزاي(٢)، وقولهم الصقر بالزاي، " قال الأصمعي: اختلف رجلان في الصقر؛ فقال أحدهما: بالصاد، وقال الآخر: بالسين؛ فتراضيا بأَوَّلِ واردٍ عليهما ، فحكيا له ما هما فيه؛ فقال: لا أقول كما قلتما ، إنما هو الزَّقرْ" (٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصاد، التي تتعرض في بعض السياقات النطقية، إلى التجهير والقلب إلى صوت كالزاي، لم تفقد خاصة التفخيم أو الاطباق التي تتسم بها وتميزها. ولهذا فإن الصورة الصوتية للصاد هنا ليست زاياً خالصة، وإنما هي زاي مطبقة، قريبة الشبه من نطق

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥١.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١/ ١٢٧.

(٣) السيوطي: المزهر. ١/ ٢٦٣.

صوت الظاء في مثل كلمة "ظالم"، في معظم العاميات العربية. ولقد نص سيبويه على ذلك بقوله:" ولم يبدلوها -أي الصاد- زاياً خالصة كراهية الاجحاف بها للاطباق"[1].

وعلى أي حال، فإنَّ هذا الصوت، الذي يتحدث عنه سيبويه هنا، هو عبارة عن تنوع صوتي (ألوفوني) للوحدة الصوتية الأساسية (الفونيمية) الصاد، وليس تنوعاً صوتياً أو فرعاً للزاي كما ذكر السيوطي[2] .

٦- ألف التفخيم:

يراد بها الألف التي ينحو بها الناطق نحو الواو، أو تلك الألف التي تجدها -كما قال ابن جني- بين الألف وبين الواو[3]، على عكس الألف الممالة التي ينحو بها الناطق نحو الياء، أو توجد بين الألف والياء. ويصحب نطق هذه الألف استدارة الشفتين قليلاً مع اتساع الفم نتيجة لحركة الفك الأسفل ويرتفع مؤخر اللسان قليلاً، فيصير الفم في مجموعه

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٨.

(٢) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٢٩.

(٣) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥٠، وكذلك:

ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

حجرة رنين صالحة لإنتاج القيمة الصوتية التي نسميها التفخيم على لغة أهل الحجاز[1] .

ويبدو لنا، من الأمثلة، التي قدمها سيبويه لهذا الصوت، مثل: الصلاة، والزكاة، والحياة، أن هذه الظاهرة الصوتية، التي كانت خاصة بالناطقين من أَهل الحجاز، على حدِّ قوله، لم تكن مرتبطة بسياقات نطقية تتطلب تفخيماً، ولهذا فقد حرَص الكُتَّاب في الماضي، وخاصة كُتَّاب القرآن الكريم، على إظهار خاصة التفخيم بهذه الألف بوساطة رسمها واواً للإيحاء بخصيصة الاطباق فيها.

ونود الإشارة إلى أننا لا نستطيع عدَّ هذا الصوت، الذي اعتبره سيبويه خاصاً بلهجة من اللهجات العربية، وهي لهجة أهل الحجاز، تنوعاً صوتياً ألوفونياً للوحدة الصوتية الأصلية وهي الألف، وإنما هو تنوع ديافوني لهجي Diaphone لتلك الوحدة الصوتية؛ أي الألف.

ثالثاً- الحروف العربية الفروع غير المستحسنة:

أضاف سيبويه إلى الأحرف الستة الفرعية السابقة، سبعة أحرف أخرى متفرعة من بعض تلك الحروف العربية الأصول، غير أن هذه الأحرف الفرعية تختلف -في نظر هذا العالم- عن سابقتها في كونها "غير

(١) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٣.

مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر"(١). وهذه الأحرف هي:

١. الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف:

لم يشرح سيبويه المقصود بصوت الكاف التي بين الجيم والكاف، وصوت الجيم التي كالكاف، كما أنه لم يمثل لهما أيضاً. ويبدو أن كلا الصوتين يدل في النهاية على صوت واحد، وإن كان الخط التطوري، الذي سلكه كل واحد منهما، يختلف عن الخط التطوري الذي سلكه الآخر.

فسيبويه – من ناحية- جعل الحروف العربية الخمسة والثلاثين اثنين وأربعين حرفاً، وذلك بإضافة أحرف وصفها بأنها غير مستحسنة، وعدد هذه الأحرف المضافة لا يمكن أن يكون إلا سبعة أحرف حتى يكتمل بها عدد الحروف الخمسة والثلاثين اثنين وأربعين.

ومن ناحية أخرى، فإن وصفه للكاف، التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، يدل -فيما نرى- على وصف واحد، فصوت الكاف الطبقي الانفجاري المهموس، يتخذ، عندما يتقدم مخرجه إلى الأمام، حيث مخرج الجيم الغاري، صفة الجيم، وهي الصفة المركبة من

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢.

الدال الانفجارية، والجيم المعطشة، مع احتفاظه ببعض خصائصه، ولا سيما خاصة الهمس. فإذا نطقت الكاف على هيئة الجيم، واحتفظت – بالإضافة إلى خاصة التركيب- بخاصتها المهموسة، فإنها من الممكن أن تتحول إلى صوت مركب مهموس Affricate يصفه اللغويون بالكشكشة، وهو صوت شبيه بالصوت الإنجليزي (Ch) في كلمة مثل Chair بمعنى كرسي.

أما الصوت الذي وصفه سيبويه بأنه (جيم كالكاف)، فهو – فيما يبدو- صوت الجيم، وقد تعرض للتهميس Voicelessness وفقدان صفة الجهر، مع احتفاظه بخاصة التركيب، عندئذ فإنه يتحول أيضاً إلى صوت مركب مهموس هو صوت الكشكشة الشبيه بالصوت الإنجليزي السابق (Ch).

وعلى هذا، فإن هذين الصوتين هما، في النهاية، صورة صوتية واحدة أو متقاربة لأصلين صوتيين مختلفين؛ أولهما: كاف تحولت إلى صورة صوتية بين الجيم والكاف، وثانيهما: جيم تحولت إلى صورة صوتية تشبه الكاف. ويبدو أن القدماء –أو بعضهم على الأقل- قد لمحوا هذا الذي نعتقده، غير أنهم لم يولوا ذلك مزيداً من الجلاء والتوضيح. فابن يعيش –على سبيل المثال- يذيِّلُ حديثه عن هذين الصوتين، بقوله:" ...

وهما جميعاً شيء واحد، إلا أن أصل أحدهما الجيم، وأصل الأخرى الكاف، ثم يقلبونهما إلى هذا الحرف الذي بينهما"[1] .

وربما كان ابن عصفور يوحي بذلك عندما استهل حديثه عن الصوت الثاني -وهو الجيم التي كالكاف- بقوله: "وهي بمنزلة ذلك"[2]. فكأن اسم الإشارة "ذلك" يشير إلى الصوت الأول -وهو الكاف التي كالجيم- فيكون المعنى، بناء على ذلك، على النحو الآتي : إن هذين الصوتين الناتجين بمنزلة واحدة، ولكن بعض اللغويين القدامى والمحدثين[3] عدوا هذين الصوتين منفصلين وعدوا كلَّ واحد منهما دالاًّ على صوت مستقل، فجعلوا -بذلك- عدد الحروف العربية ثلاثة وأربعين حرفاً، وليس اثنين وأربعين حرفا، كما نص سيبويه، فقد ذهب السيوطي، وابن عصفور وغيرهما، إلى أن الصوت الأول -هو الكاف

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

(٣) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص:٥١-٥٦. وينظر كذلك:

ابن جني: سر صناعة الإعراب ١/ ٤٦.

ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

التي بين الجيم والكاف- يعد- كما يروى عن ابن دريد- لغة في اليمن يقولون في " كمل "، " جمل "[1].

ولكن ابن يعيش ينقل الرواية عن ابن دريد على نحو آخر، فهو يقول: "فأما الكاف التي بين الجيم والكاف" فقال ابن دريد هي لغة في اليمن يقولون في جمل كمل، وفي رجل ركل.

أما الصوت الثاني – وهو الجيم التي كالكاف- فيمثل له السيوطي، وابن عصفور بكلمة "رجل" التي تتحول إلى "ركل"[2].

ولكن لماذا اعتبر سيبويه هذا الصوت غير مستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؟ والجواب عن ذلك يكمن –فيما نعتقد- في كون هذا الصوت لا يمثل تنوعاً صوتياً سياقياً عاماً في نطق أبناء العربية، وإنما هو نطق محلي عامي، أو نطق لهجي، أو نطق فردي ناجم عن عيب عضوي لم يبلغ مرحلة النطق العام عند الناطقين بالعربية، ويعزز هذا ما أومأ إليه سيبويه نفسه من أن هذا الحرف –ومعه بقية الأحرف الأخرى غير المستحسنة- غير كثير في لغة من ترتضى عربيته. فقوله هذا يعني –في رأينا- ما ذهبنا إليه قبل قليل – أن نطق هذا الصوت لم يبلغ مرحلة

---

(١) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٢٩. وكذلك:

ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٥

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧

الشمول والعموم السياقي الذي تتخذه التنوعات الصوتية، أو الصور الصوتية للوحدة الصوتية الأساسية. ولعلنا نلتمس الدليل، على رأينا هذا، فيما أشار إليه بعض القدماء أيضاً من أن هذا الصوت كان شائعاً في نطق عوام بغداد، وأنه شبيه باللثغة[1].

٢. الجيم التي كالشين:

قدم سيبويه لهذا الصوت مثالاً بكلمة "أجدر" التي تصبح في نطق بعضهم "أشدر"[2]. ولكن اللغويين، الذين جاءوا بعده، قدموا له بعض الأمثلة المشفوعة ببعض التعليلات الصوتية، ومن هذه الأمثلة التي قدموها قولهم في "اجتمعوا"، و"اجترّ"، و"الأجدر"، "اشتمعوا" و"اشترّ" و"الأشدر"، حيث كانوا ينطقون الجيم، في هذه الأمثلة، - وأشباهها- شيناً أو صوتاً قريباً من الشين. وكانوا يمزجون، في أثناء نقاشهم وتعليلهم، بين هذا الصوت، الذي عده شيخهم – وعدوه معه أيضاً- مستهجناً، وصوت الشين التي كالجيم الذي عده جميعهم مستحسناً.

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٥، وكذلك:
ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٧٩.

وقد علل القدماء استهجان سيبويه، واستهجانهم أيضاً، لهذا الصوت في أنه لا يوجد بين صوت الجيم والصوت التالي له، وهو – في هذه الأمثلة- التاء، والدال، تباين يوجب قلب الجيم إلى شين، فكلا الصوتين المتجاورين شديد، وعلى هذا فإن "الفرار من المثلين مستهجن"[1]. كما عللوا قلب الشين إلى جيم -في مجموعة الحروف السابقة- بسبب وجود تباين بين صوت الشين والصوت التالي له -وهو صوت الدال في الأمثلة التي قدموها- في الرخاوة والشدة، والهمس والجهر، "فقربوها -أي الشين- من لفظ الجيم، لأن الجيم قريبة من مخرجها موافقة الدال في الشدة والجهر"[2]. وكانوا يستندون، في تعليلهم لذلك، من منطلق أن "الفرار من المتنافيين مستحسن"[3].

وفي رأينا أن السبب الذي أدى إلى تحويل صوت الجيم إلى صوت الشين، أو إلى صوت قريب منه، في الأمثلة التي قدمها علماؤنا المتقدمون، يعود إلى سببين:

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧

(٣) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

أولهما : قانون المماثلة Assimilation : الذي يقضي بإحداث نوع من التوافق والإنسجام بين الأصوات المتنافرة في المخارج أو في الصفات. ففي الأفعال: اجتمع، واجتهد، واجتر... وغيرها، التقى صوت الجيم المجهور الشديد (حسب التصنيف القديم) الذي ضعف بموقعه ساكناً في نهاية مقطع مع صوت التاء المهموس الاحتكاكي الذي قوي بموقعه متحصناً بالحركة في بداية مقطع، مما أدى إلى تأثر الصوت الأول – وهو صوت الجيم – بالصوت الثاني – وهو صوت التاء – تأثرا رجعياً، فطرأ عليه –بسبب هذا التأثر– التهميس وانقلب إلى مقابله المهموس الاحتكاكي وهو صوت الشين، فأصبحت تلك الكلمات تنطق هكذا: اشتمع، اشتهد، اشترّ.

وثانيهما: قانون المخالفة Dissimilation : الذي يسير في اتجاه معاكس للقانون السابق، ويقضي هذا القانون "بتعديل الصوت الموجود في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور ولكنه تعديل عكسي يؤدي إلى زيادة مدى الخلاف بين الصوتين المتجاورين"(١).

ففي المثال الذي قدمه سيبويه، واللغويون العرب في هذا المجال، وهو الكلمة (الأجدر)، نجد أن صوت الجيم المجهور الشديد (حسب التصنيف القديم) قد تجاور مع صوت الدال المجهور الشديد أيضاً،

---

(1) Brosnahan, and Malmberg, Introduction to Phonetics. P:134

ولكن طرأ تعديل على نطق الصوت الأول -وهو صوت الجيم- بسبب إحداث نوع من المخالفة الصوتية بين الصوتين المتجاورين، فانقلب صوت الجيم إلى مقابله المهموس الاحتكاكي، وهو صوت الشين، فأصبحت الكلمة تنطق -كما وصف القدماء- الأشدر.

ولكن لماذا أدرج سيبويه الجيم التي كالشين ضمن الأصوات غير المستحسنة، في حين وجدناه يدرج الشين، التي كالجيم، ضمن الأصوات المستحسنة، مع أن كلا الصوتين يخضع، في تطوره وتحوله إلى الصوت المقابل له، لظروف صوتية واحدة أو متقاربة؟ وللإجابة عن هذا، فإننا نجد أنفسنا أمام أمرين:

أولهما: أن قلب الجيم في مثل: اجتمعوا، واجتهد، واجتر، وغيرها، إلى شين، أو إلى صوت قريب من الشين، أمر يسوغه السياق النطقي الذي يقضي بوجود تأثير متبادل بين الأصوات المتجاورة غير المتجانسة، أو المتماثلة في المخرج أو الصفة. فصوت الجيم المجهور "الشديد" وقع في السياق النطقي -في هذه الأمثلة- ساكناً قبل صوت مهموس احتكاكي هو صوت التاء. ومن شأن هذا ألا يحقق الانسجام النطقي المطلوب بين الأصوات المتجاورة، مما يؤدي إلى إحساس الناطق بمشقة نطقية تدفعه -لا شعورياً- إلى تبديل صوت بآخر، أو إلى إحداث

نوع من التغيير في بعض صفات الصوت، وذلك من أجل توفير قدر أكبر من الانسجام في أصوات الكلام، ولجعلها أسهل في النطق.

وعلى هذا، فإن الوحدة الصوتية التي أصابها التغيير في تلك الأمثلة، وهي "الجيم"، قد تعرضت في السياق النطقي إلى شيء من التهميس، حوَّلها إلى المقابل المهموس لها، وهو صوت الشين، وهذا الصوت الجديد الناتج ما هو في الواقع إلا صورة صوتية، أو تنوع صوتي ألوفوني، فرضه السياق على تلك الوحدة الصوتية الأساسية. ومن هذا المنطلق، فإننا لا نكاد نحس بأن هذه الصورة الصوتية السياقية الناتجة تختلف، في حقيقة وجودها، وظروف نشأتها، عن صوت "الشين التي كالجيم"، الذي عَدَّه سيبويه صوتاً مستحسناً. فكلاهما تنوع صوتي، لوحدة صوتية أساسية، فرضه السياق والتجاور بين الأصوات.

وثانيهما: أن قلب الجيم في مثل (الأجدر) إلى صوت الشين، أمر لا يسوغه السياق النطقي. ذلك أننا -في المثال الذي قدمه علماؤنا- أمام صوتين متجاورين متماثلين إلى حد كبير، فكلاهما صوت مجهور شديد. وهذا يعني، أن بين هذين الصوتين المتجاورين قدراً من التجانس الصوتي بحيث يسمح بالنطق دونما تعسر أو تعقيد، ولهذا فإن قلب الجيم إلى شين من شأنه -في هذا المثال وأشباهه- أن يؤدي إلى إحداث تخالف

صوتي بين الأصوات المتجاورة. وقد نصَّ علماؤنا القدامى على أن "الفرار من المثلين مستهجن"(١).

لذلك فإننا نعد هذا الصوت، من خلال هذا المثال، وما كان على شاكلته، صوتا -كما وصفه سيبويه، ومن جاء بعده من اللغويين والمريدين- غير مستحسن.

٣. الضاد الضعيفة:

لم يقدم سيبويه لهذا الصوت تمثيلاً، وإنما قدم له وصفاً بيَّن فيه معنى الضعف الذي يعتوره، والمتمثل في أنه يُتكلف من الجانب الأيمن، أو الجانب الأيسر، وأن ملمح الاطباق فيه قد أزيل عن موضعه، وأنه من حافة اللسان لا من أول حافته، كما هو الحال مع الضاد الفصيحة القديمة، ويبدو أن هذه العوامل معاً، هي التي دفعت هذا العالم إلى تصنيف هذا الصوت ضمن قائمة الأصوات غير المستحسنة.

غير أن وصف سيبويه لهذا الصوت بالضعف، يوحي بأنه المقابل غير المستحسن لصوت الضاد (القوي) المستحسن. فما هي الضاد القوية إذن؟ وما الذي يمكن أن يطرأ على نطقها حتى تستحيل إلى ضاد ضعيفة غير مستحسنة؟

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

وصف سيبويه مخرج الضاد بقوله: إنه "من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس"(١)، ثم وصف طريقة نطقها، في أثناء حديثه عن الأصوات المطبقة أو المخففة، فقال: "إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك، فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف"(٢).

وهذا يعني أن النطق بهذا الصوت، يتمُّ عندما يحتك تيار الهواء الصادر من الرئتين، عبر القصبة الهوائية، وتجاويف الحنجرة والحلق، والفم، بجانب اللسان والأضراس المقابلة لهذا الجانب، فهو -بالإضافة إلى خاصة الاطباق فيه- صوت احتكاكي مثله في ذلك مثل الثاء، ومن هنا وجدنا بعض العرب حين ينطقون كلمة تشتمل على صوت الثاء، متلواً بصوت مفخم مجهور يحدث في نطق الثاء شيء من عدوى التفخيم والجهر الضعيفة، فتصير الثاء بذلك ضاداً ضعيفة، وقد مثل لها ابن عصفور بقولهم في " اثْرُدْ لَهُ" اضْرُدْ لَهُ"(٣).

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٦.

(٣) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦. وكذلك:

د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٥.

أما الضاد الضعيفة، فيبدو أنها كانت صوتاً قريب الشبه بصوت الظاء، وكان الناطقون بها "يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأت لهم فخرجت بين الضاد والظاء"(١). أو أن أولئك الناطقين بها كانوا -كما روى السيوطي عن أبي علي- لا يشبعون مخرجها، ولا يعتمدون عليه، وإنما تخفف وتختلس فيضعف إطباقها(٢). وقد وردت - في كتب اللغة والأدب- بعض الروايات التي تتحدث عن الخلط الذي كان يحدثه بعض الناس في أثناء نطقهم لبعض الكلمات المشتملة على ضاد وظاء، فقد روى أبو علي القالي أن رجلا " قال لعمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين، أيضحّى بضبي؟ قال: وما عليك لو قلت بظبي ! قال إنها لغة، قال: انقطع العتاب ولا يضحى بشي من الوحش"(٣). وأورد الجاحظ لهذه الظاهرة قصة طريفة قال فيها:" وزعم يزيد مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها، قال: يا ضمياء،

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧- ١٢٨.

(٢) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠

(٣) القالي: ذيل الأمالي والنوادر. ٢/ ١٤٢

بالضاد، فقال ابن المقفع: قل: يا ظمياء ... فناداها: يا ضمياء. فلما غيَّر عليه ابن المقفع، مرتين أو ثلاثاً، قال له: هي جاريتي أو جاريتك؟!"[1].

وقد سجل السيوطي أمثلة كثيرة لظاهرة الخلط بين هذين الصوتين يمكن الرجوع إليها[2].

وعلى هذا فإن النطق بهذا الصوت ناجم -فيما نظن- عن حالات نطق فردية أو بيئية فيها تكلف يؤدي إلى ضعف النطق بها[3]، بحيث يخالف المألوف في نطق الضاد الفصيحة. ويبدو لنا أن هذه المخالفة ليست سياقية أو موقعية، وإنما هي مخالفة ناتجة عن "لغة قوم ليس في لغتهم ضاد"[4]، أو هي -على حد قول ابن عصفور- " في لغة قوم ليس في أصل حروفهم الضاد "[5]، أو هي لغة بعض القبائل العربية كما ذكر السيوطي[6]. ولهذا فقد عدَّ سيبويه هذا الصوت غير مستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر.

(١) الجاحظ: البيان والتبيين. ٢/ ٢١١.

(٢) المزهر. ٢/ ٥٦١-٥٦٣

(٣) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

(٤) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

(٥) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

(٦) السيوطي:المزهر ٢/ ٥٦١-٥٦٣.

٤. الصاد التي كالسين:

لم يمثل سيبويه لهذا الصوت أيضاً، وإن كان بوسعنا أن نتصور كيف كان ينطق. فصوت السين هو المقابل المستفل، أو المرقق لصوت الصاد، وباستثناء هذا الخلاف بين الصوتين، نجد أن هذين الصوتين يشتركان في الملامح الأخرى المميزة لهما وهي ملامح المخرج، والاحتكاك، والهمس، والصفير.

وقد مثل بعض اللغويين لهذا الصوت بكلمة "صبغ" التي تصبح "سبغ"، وكلمة "صابر" التي تصبح "سابر"، وكلمة "صائر" التي تصبح "سابر"[١]. ويبدو أن النطق بهذا الصوت، كان خصيصة نطقية، لغير العرب ممن تخلو لغتهم الأصلية من الأصوات المفخمة، أو لعله كان ناشئا عن نطق بعض الطبقات الاجتماعية العربية التي اتسمت حياة أبنائها –ولا سيما النساء– بالدَّعة والرفاهية، كما هو الحال في كثير من المجتمعات العربية المعاصرة. ولعل هذا النمط من النطق بهذا

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٨. وكذلك:

السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠.

ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

الصوت، وما كان على شاكلته، يقترب، أو يتفق، مع ما يُطلق عليه الدرسُ الصوتي الحديث مصطلح " ڤـاريفون " Variphone [1].

وربما عد سيبويه النطق بهذا الصوت غير مستحسن "لأن الصاد أصفى في السمع من السين، وأصفر في الفم"[2].

٥. <u>الطاء التي كالتاء:</u>

لم يمثل سيبويه لهذا الصوت أيضاً. ونحن نعتقد أن المقصود به، هو صوت ينطق بين الطاء والتاء، أو هو صوت الطاء (القديم) وقد تعرض لفقدان ملمح الجهر"[3]، أو لفقدان ملمحي الجهر والتفخيم معاً، فأصبح ينطق تاء.

وقد مثل بعض اللغويين لهذا الصوت بكلمة "طالب" التي تصبح "تالب"، وكلمة "طال" التي تصبح "تال"[4]. ونصّوا على أن هذا

---

(١) د. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت الصوتي ، ص: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٩٣.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/ ١٢٨.

(٣) عد القدماء صوت الطاء صوتاً مجهوراً، خلافاً للتصنيف الصوتي الحديث الذي يعدُّ هذا الصوت مهموساً.

(٤) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠، وكذلك:

- ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.
- ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

الصوت كان يسمع كثيراً في نطق عجم أهل المشرق "لأن الطاء في أصل لغتهم معدومة، فإذا نطقوا بها تكلَّفوا ما ليس في لغتهم" [1].

ويبدو لنا أن هذا هو السبب الذي دفع سيبويه إلى عد هذا الصوت ضمن مجموعة الأصوات غير المستحسنة؛ فهو لا يمثل تنوعاً صوتياً، متفرعاً عن وحدة صوتية، أدى إلى وجوده السياق النطقي. وإنما هو – كما وضَّح أولئك اللغويون- انحراف نطقي ناشيء عن عدم الألفة لنطق أصوات التفخيم العربية.

ويلجأ بعض الناطقين العرب، وخاصة الفتيات من أبناء الطبقات الاجتماعية المترفة –في عصرنا الحاضر- إلى إزالة صفة التفخيم في أثناء نطقهم لصوت الطاء، حيث نسمع هذا الصوت على ألسنتهم كأنه صوت التاء، أو هو صوت التاء عينه. ولا شك في أن هذا النطق – كما وصفه سيبويه- غير مستحسن، ومجافياً لمعايير الفصاحة.

٦. <u>الظاء التي كالثاء:</u>

لم يمثل سيبويه في كتابه لهذا الصوت أيضاً. ومن المعلوم أن صوتي الظاء والثاء يتوحدان في ملمح المخرج، وهو المخرج الأسناني،

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

غير أنهما يختلفان في ملمحي الجهر والتفخيم الخاصين بالظاء، والهمس والترقيق الخاصين بالثاء.

ولكن ما حقيقة هذا الصوت، الذي وصفه سيبويه بأنه ظاء كالثاء وعدَّه – مع غيره من الأصوات- غير مستحسن؟

لقد نص سيبويه على أن هذا الصوت شبيه بالثاء. فهل هذا يعني أن صوت الظاء قد تعرض للتهميس فقط، فانقلب إلى مقابله المهموس، وهو صوت الثاء، أو صوت قريب منه. وعلى فرض حدوث هذا، فهل حافظت الثاء على خاصة التفخيم التي للظاء، وإذا حدث هذا –على الرغم من صعوبة تصوره- فما هو صوت الثاء المفخم؟ وكيف ينطق؟

إنَّ المقابل المفخم لصوت الذال هو صوت الظاء، ولو أن شيخنا وصف هذا الصوت بأنه ظاء كالذال، لكان تصورنا للأمر شبيهاً بتصورنا للصوتين السابقين، حيث يتلخص الأمر بانقلاب صوت الظاء المجهور المفخم إلى مقابله صوت الذال المجهور المرقق. ولكن سيبويه وصف لنا هذا الصوت بأنه ظاء كالثاء. فهل هذا يشير إلى أن سيبويه يريد أن يقول بأن الظاء هنا قد تعرضت لفقدان ملمحي الجهر والتفخيم في آن واحد ، فانقلبت إلى هذا الصوت، الذي تحدث لنا عنه، والذي مثَّل له اللغويون بكلمة "ظلم"، التي تصبح "ثلم"، وكلمة "ظالم" التي تصبح "ثالم".

لعله كان يقصد ذلك فجاء هذا الصوت على هذه الصورة المشوهة التي لا تليق إلا بمرضى النطق"[1].

٧. الباء التي كالفاء:

يبدو أن هذا الصوت –الذي أورده سيبويه ضمن مجموعة الأصوات غير المستحسنة– هو صوت الباء العربية، وقد أصابه شيء من الهمس فأَصبح يُنطق على نحو قريب من صوت الباء الفارسية، الذي يكتب بثلاث نقط من أَسفل (پ) تمييزاً له من صوت الباء العربية الذي يكتب بنقطة واحدة من أسفل هكذا (ب).

وقد وضَّح ابن دريد المقصود بهذا الصوت عندما قال في مقدمة جمهرته: "الحرف الذي بين (الباء والفاء) مثل: (پــور)، إذا اضطروا إليه قالوا (فور)"[2]. والمعروف أن العرب كانوا يعرِّبون هذه الباء بقلبها فاء، ومن ثمَّ أصبحت كلمة "برزده" عند تعريبها "فرزدق" وكلمة "بالوزه" فالوذج[3].

(١) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٢٣.

(٢) ابن دريد: جمهرة اللغة، المقدمة.

(٣) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٦.

ويبدو لنا أن النطق بهذا الصوت كان خاصاً بالفرس الذين دخلوا الإسلام، ومعهم لغتهم حية منطوقة، أو كان نطقه يجري على ألسنة بعض العرب ممن تأثروا بالفرس حضارة وحياة اجتماعية. ولهذا فقد عدَّ سيبويه هذا الصوت، الذي ليس له نظير في العربية، صوتاً غير مستحسن.

وواضح من كلام هذا العالم أنه قد اعتمد – في وصفه وتصنيفه للأصوات العربية – على تقرير الواقع اللغوي المنطوق المعاصر له. ولهذا فقد جاءت نظراته ومعالجاته اللغوية بعامة، والصوتية بخاصة، مبنية على الدرس الصوتي المتكئ -بدوره-على المباشرة الذاتية والملاحظة الشخصية، حيث كان -كما يفهم من كلامه- يشافه الناطقين باللغة من مختلف المستويات، كما كان يقف منهم -في الوقت نفسه- موقف المتأمل الفاحص، والناقد المصنِّف، مما مكَّنه -فيما نرى- من تصنيف الأصوات العربية إلى ثلاث مجموعات:

أ. المجموعة الأولى: وتتألف من تسعة وعشرين حرفاً. ويرى سيبويه أن حروف هذه المجموعة تمثل "أصل حروف العربية".

ب. المجموعة الثانية: وتتألف من ستة أحرف هي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين... إلخ. ويرى سيبويه أن أحرف هذه المجموعة تمثل تنوعات صوتية فرعية لبعض الحروف التسعة والعشرين

الأصلية. ويرى -من جهة أخرى- أن هذه الأحرف " كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار "(١).

ت. <u>المجموعة الثالثة:</u> وتتألف من سبعة أحرف هي: "الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء"(٢). ويرى سيبويه أن أحرف هذه المجموعة تمثل -كسابقتها- تنوعات صوتية فرعية لبعض الحروف التسعة والعشرين الأصلية، غير أنها -من جهة أخرى- أحرف يقول عنها سيبويه- "إنها غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر"(٣).

ويكمن الخلاف بين حروف المجموعتين الأخيرتين -فيما نرجح- في أنَّ أحرف المجموعة الأولى ، التي وصفها سيبويه بأنها " كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار"، عبارة عن تنوعات صوتية، أو صور صوتية سياقية " ألوفونات" لبعض الوحدات الصوتية

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٢

(٣) السابق. ٤/ ٤٣٢

الأصلية "الفونيمية" التسعة والعشرين . فكأن وصفه لها بالكثرة والأخذ بها يعني اطّراد ورودها في أثناء النطق بها في السياق الصوتي المعين الذي ترد فيه، أما قوله بأنها "تستحسن في قراءة القرآن والأشعار" فإنه يضفي عليها صفة الشرعية اللغوية ويبعدها عن الركاكة والاسفاف والنطق الفردي أو اللهجي.

أما أحرف المجموعة الثانية التي وصفها سيبويه بأنها: "حروف غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر"، فهي -في اعتقادنا- طرائق نطقية غير فصيحة ولا صحيحة لبعض الأصوات الأصلية التسعة والعشرين، بسبب بيئي لهجي " ديافونات "، أو اجتماعي، أو فردي "فاريفونات"[1].

---

(١) يقصد "بالديافون" صوت كلامي في لهجة يختلف في لهجة أخرى، ضمن اللغة نفسها، من ناحية صوتية، ويطابقه من ناحية وظيفية مثل /a/ الأمريكيةو /o/ البريطانية عند لفظ كلمة "dog". يُنظر:

-معجم علم اللغة النظري، للدكتور محمد علي الخولي. ص: ٧٤.

وعرفه ماريوباي، بأنه عبارة عن تنوعات الفونيم التي ترد في كل منطوقات المتكلمين بأية لغة. أو هو عبارة عن فونيم لهجة ما يقابل فونيم لهجة أخرى، بيد أنهما مختلفان من ناحية "فوناتيكية" صوتية، ومن أمثلة ذلك، الخلاف في نطق الإنجليز والأمريكان، لكل من /o/ في كلمات=

ولعلنا نلتمس الدليل على ذلك من تعقيب معظم اللغويين القدامى على هذه الأصوات؛ فابن يعيش يختتم حديثه عنها بقوله "وكأن الذين تكلموا بهذه الحروف المسترذلة قوم من العرب خالطوا العجم فتكلموا بلغاتهم"(١).

ويبدو أن سيبويه قد انطلق، في تصميمه لهذه المجموعات، التي وزّع فيها تصوره للحروف العربية، من منطلقين أساسين، هما:

= من مثل" not, lot, pot" و /r/ في كلمة "very": يُنظر:

Pie, M: Glossary of Linguistic Termononlogy. Doubleda, - Anchor. Garden City, New York. 1966, p.65.

Jones, D.: The Phoneme: Its Nature and Use. Heffer. Cambridge. 1967. Pp, 195-196.

أما الـڤـاريفون- وهو مصطلح اقترحه اللغوي الإنجليزي "دانيال جونز" فيقصد به، تلك الأصوات غير الثابتة، والقابلة للتنوع مستقلة عن سياقها الصوتي". المرجع السابق ص:٢٠٥وما بعدها.فالناطق العادي قد يستعمل الصوت الواحد بتنوعات نطقية مختلفة، دون وعي أو إدراك منه لهذه التنوعات، وقد يعود السبب في ذلك إلى نوعية البيئة الاجتماعية، والنفسية، والإقليمية التي يتفاعل معها المتكلم في لحظة ممارسته للاتصال اللغوي.

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٨. وكذلك:

- الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.
- السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠.
- ابن عصفور : الممتع في التصريف ٢/ ٦٦٧.

أ. حروف العربية بوصفها وحدات خطية Graphemes، أو أشكالاً كتابية تعتمد عليها اللغة المكتوبة. ويشمل ذلك حروف المجموعة الأولى التسعة والعشرين، التي نص عليها سيبويه وعدها "أصل حروف العربية"

ب. حروف العربية بوصفها وحدات صوتية Phonemes، لها -في مستوى النطق- صور صوتية متنوعة ألوفونية Allophones، أو: ديافونية Diaphones، أو: فاريفونية Variphones .

وتعد الوحدات الخطية، أو الكتابية، المادة الخام، أو الأصل لكل ما يتفرع عنها من تنوعات صوتية، أو صور فرعية. ويكمن الفرق بين هذين النوعين، من الوحدات اللغوية، في كون الوحدات الصوتية وصورها المختلفة لا تظهر تنوعاتها وحالاتها المختلفة إلا في المستوى النطقي السياقي، أو اللهجي، أو الاجتماعي والفردي. ولقد تمكن سيبويه من أن يلمح هذا، الذي يذهب إليه اللغويون المحدثون، ويقرره بكل بساطة ويسر عندما قال: "هذه الحروف التي تمَّمْتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون، لا تُبَيَّنُ إلاّ بالمشافهة"[1].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢.